الفصل الثانى

العمل الجَماعى

بين التمكين للقدوة والاعتماد على الأتباع

هناك خطاب « حث » عام للمسلمين بالتحرك حركة جَماعية واحدة ، لا حركات فردية متناثرة ومتنافرة بل متضاربة أحياناً ، هكذا استدعت طبيعة الرسالة المنوطة بها الأمة ، أُمة الإسلام .

ويأخذ هذا الخطاب درجات من الأهمية والفرضية ومن الاستحباب إلى الإلزام ، ومن الإلزام الكفائى إلى الإلزام العينى ، وذلك تبعاً لاحتياجات الاستنفار الجَماعى لكل مهمة من مهام الأمة ، ومراعاة رفع الحَرَج ورحمة التكاليف ، وعلى أن يلزم ذلك جميعاً أسس قوية لا يعفى منها تضمن سلامة الأداء وقوة البنيان الإسلامى :

* فالأخوة والتآخى فى الدين داعى من دواع العبودية : « .. وكونوا عباد اللّه إخوانا » ... الحديث .

* والتحاب فى اللّه شرط من شروط الإيمان ، ومن ثَمَّ شرط من شروط دخول الجنة : و « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ... الحديث .

« من أحبَ فى اللّه وأبغض فى اللّه وأعطى فى اللّه ومنع فى اللّه فقد استكمل عرى الإيمان » ... الحديث .

* والموالاة والمناصرة من دون المتربصين لهم من أهل الكفر والنفاق من لوازم الإيمان أيضاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .... ﴾ الآية [1] .

---

(١) التوبة : ٧١

كما يجمعهم ويؤسس حركتهم سلامة الغاية والمبدأ وانطلاقة الأهداف : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَقْوَىٰ ، وَلا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثْمِ وَالْعُدْوَانِ .... ﴾ الآية [١] .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴾ الآية [٢] .

ويضاف لتلك الأسس ، تلك الإشارة التحذيرية ، لتحول دون الوقوع فى فتنة التفرق والاختلاف ، حتى لا تتعدد الرايات وتتفرق السبل : ﴿ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٣] .

وتمام ذلك الأمر لا يأتى إلا من خلال الالتزام بضوابط السير العامة التى ألزمنا بها الدين ، ومن وصية المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسُنّتى » .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [٤] .

* *

وهكذا نجد الدعوة صريحة بيِّنة تعمل على استجاشة الحس الجَماعى واستصدار الرغبة الجَماعية فى بذل الخير ، ثم الاعتصام بحبل الله والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى سبيل بعث هذه الروح فى الأمة اشترط عليها المشرِّع بعض العبادات

---

(١) المائدة : ٢ (٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) آل عمران : ١٠٥ (٤) النساء : ٦٥

الأساسية والفرائض وألزمها أداءً جَماعياً ورصَّ الصفوف وضبطها أحياناً ، وبدون خيار لهم فى ذلك .

وهكذا تأسس كيان الأمة واستمر تعاهدها على ذلك ، وإلى أن أهلَّ علينا هذا الزمان الذى نعيشه ، والقرن الميلادى الذى نحن بصدد توديعه ، حيث كان من الغبار الذى حملته رياح التغريب إلينا فى مطلعه ، تغريب ذلك الشعور وهذه العاطفة الدينية ، ومن خلال بث خبيث ينشر سمومه ، حتى ألقى فى روع العامة والخاصة ، بأن هذا التدين شأن شخصى ، وعاطفة فردية مقرها القلب ، وليس على كل منا إلا خاصة نفسه . ثم بشئ من التفكهة والتندر على أهل الوعظ والدعاة ، بدأ هذا السم يأخذ طريقه إلى القلوب ، ولتنكمش بذلك الروح الجَماعية وتأخذ فى الضمور .

هذا مع أنه كان يجرى فى نفس الوقت وعلى قدم وساق ، تحركات جَماعية ، دؤوبة ، لكن فى الحرص على تغريب هَوية الأمة ، وإن عملت تحت شعارات التنوير ساعية بكل طريق إن سراً وإن جهراً ، حتى أفسح المجال لها ، إلى أن أصبحت من القوة التى تمكنت بها فى الجهر بأفكارها التخريبية ، ومن أن تستوطن فى قلوب الأمة الضعيفة الخاوية .

وأمام هذه الجبهة المتنامية ، كان من الطبيعى أن تضيع أصوات علماء الأمة ودعاتها – المتناثرة – سدى ، فلا رابطة تجمعهم ، ولا سلطان بأيديهم ، ولا الكلام أو الوعظ أصبح كافياً أمام ذلك التيار الجارف والمتحرك بثقة وتناسق ، فى ظل المستعمر وأعوانه .

وزاد الأمر سوءاً إعلان سقوط الخلافة ، وانفراط عقد الأمة بسقوط آخر العلائق التى تجمع المؤمنين فى أنحاء الأرض .

وكان من الطبيعى أن تشكل هذه الظروف ، وذلك الواقع ضاغطاً آخر على كل مَن فكر بإخلاص فى واقع الأمة وشغل بهمها .

وكان من ضرورة إحداث نقلة فى الخطاب الإصلاحى ، إلى حيث أهمية

التربية ، ومن أهمية اجتماع الأيدى المؤمنة ، وبإعداد صف واحد يستعصى على الذوبان ، وبإعداد ذلك التيار المتلاحم القادر - بتوفيق الله - على مدافعة التيارات الوافدة بما فيها تيار الفساد والإباحية .

وجاء مشروع التكوين والتربية ، وبما أملت بمجيئه ضرورة أخرى ، فارضة نمطاً من البناء المنضبط ، ولأولوية أخرى ، هى جهاد المحتلين ، وبكل ما يستدعى طبيعة البناء فى هذه المرحلة من التجهز بعدة المؤمن المجاهد .

ومن يومها فُرِضت نظرية العمل الجَماعى ، وأخذت تتخذ صوراً شتّى وفى محاولة لسد الثغرات جميعاً ، وكضرورة مؤقتة ونظراً لانفراط عقد الدولة الإسلامية أو دولة الخلافة .

* *

● من ثمار العمل الجَماعى المعاصر :

لا يخفى على كل مهتم بالشئون الإسلامية ، كيف كان للعمل الجَماعى فى هذا القرن من إيجابيات على مسيرة الدعوة الإسلامية وعلى سبيل المثال :

* فلقد ظهرت الجماعات الإسلامية كبديل عملى تربوى لتوقف مشروع الدولة الإسلامية التى ترعى الدعوة الإسلامية ، وكبديل مهم لعجز المؤسسات الدينية، كالأزهر عن القيام بالدور المنوط بها فى مثل تلك الحقبة التاريخية من تاريخ الأمة .

* ولقدكان من أبرز إنجازات مشروع العمل الجَماعى أو التكوينى ، أن استطاع التمكين للقدوة الإسلامية الكاملة ، أو القريبة للتصور الإسلامى للشخصية الإسلامية ، وبعد أن عملت عوامل الذوبان والتحلل على طمس تلك المعالم وخلق الانفصام فى تكوين الشخصية المسلمة المعاصرة .

ففى سنوات قليلة من العمل التكوينى المنظم ، ابتدر إلى أرض الواقع المنتكس نموذج الرجل القدوة المعاصر ، الذى يحمل بين جنبيه تصوراً إسلامياً

صحيحاً ، قد ران عليه الدهر ، فضلاً عن ظهور نموذج رجل التحدى لمعطيات الحضارة ، وبعد أن اكتسحت الدعوة الجَماعية معاقل العلوم المدنية ، وقدَّمت للمنهزمين نفسياً ، الطبيب المسلم ، والمهندس المسلم ، والاقتصادى ، والأديب ، والعالِم الباحث .... إلخ (أقصد الملتزم) .

ومن هنا فقد كان العمل الجَماعى المتواصى الدؤوب ومن خلال التربية ، بمثابة مصنع للرجال ، نموذج القدوة ، الحُجَّة الحية والشاهدة على العصر .

* ومن خلال دوامية العمل الجَماعى واستمراريته ، ومن مجموع نماذج القدوة المتعانقة المتآخية ، تأمنت لهذه القدوة القدوة السائرة - فى أغلب الأحيان - ضد التيار ، ذلك المجتمع الممتثل والبيئة الصالحة التى يراها امتداداً له ، ومعضدة لتوجهاته ، ومذهبة للوحشة والاغتراب . ثم تأمنت لهذه القدوة مع الزمن والانتشار فى بقاع الأرض ، ذلك المجتمع الذى امتزجت فيه ظاهرة الأنصار والمهاجرة ، فضلاً عن تأمين ذلك الاحتياطى من العمق والإبداع والتطوير لحركة الدعوة الإسلامية ، إثر تفجر تلك الطاقات التى وجدت فى هذا المحيط الآمن النسبى بين مجتمع الاغتراب .

* وأخيراً .. يؤتى العمل الجَماعى أهم ثماره ، من خلال تأمين هذا التيار القوى ، الذى يعطى الدفع المتنامى لحركة التغيير والإصلاح ، ويشكل تحدياً عملياً لتيارات الإفساد والعلمنة ، وضاغطاً على قوى المجتمع ، من أجل اتخاذ مواقف أكثر تقرباً ومودَة ، وعودة لتطبيق ما يتطلبه منا الانتماء الإسلامى .

** وهكذا تكوَّن ذلك الجيل الذى كان عماد الدعوة الإسلامية فى هذا القرن ، ذلك الجيل الذى استمسك بدعوته وبروح الجماعة والصف الواحد فاستعصى على الذوبان رغم بشاعة ما لاقى من صنوف الإبادة والعسف .

* *

ومع هذا الإنجاز الكبير ، للمسيرة التطبيقية للعمل الجَماعى ، فقد يحتاج الأمر التوقف عند بعض المتعلقات التى ربما أفرزت ومن خلال الممارسة بعض

السلبيات ، والتى قد تضر بالمسيرة على المدى البعيد إن لم تكن أعملت بضررها فعلياً بحاضر المسيرة ، وتعرضنا لها فى هذا المقام ليس أكثر من مجرد لفت نظر العاملين لهذه الأبعاد ، وحتى يعملوا جهدهم فى سبيل استكمال الصورة الصحيحة للعمل الجَماعى ، وفى هذا الإطار نتعرض لقضيتين :

القضية الأولى : أحادية التصور الجَماعى

فمع أن السلف فهموا أن المقصود بالأمة أو الجماعة مدلولين [1] لا واحد ، أولهما المدلول المنهجى ، والآخر المدلول التكوينى ، إلا أن التجربة الإسلامية المعاصرة لم تقر - تقريباً - إلا تصوراً أحادياً لها وفى تجارب متضادة ومسفهة للبديل المعروض .

وقد استدل على المراد الأول - الارتباط المنهجى - من قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ الآية [2] ، حيث قال الطبرى : أى كنتم خير أهل طريقة ، ومما جاء فى حديث : « ستفترق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » ، ففى رواية : قالوا : يا رسول اللّه ، مَن الفرقة الناجية ؟ فجاء فى رواية : « مَن كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . أى التزام طريقهم وسلوك سبيلهم ، وانتهاج نهجهم فى كل ما أتوا .

وفى هذا السياق جاء قول ابن مسعود رضى اللّه عنه : الجماعة ما وافق الحق وإن كنتَ وحدك ، كما قال قتادة أيضاً عن الجماعة : أهل رحمة اللّه ، أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم . وكما أضاف الإمام الشافعى : مَن قال

---

(١) مفهوم جماعة المسلمين والفرقة الناجية : عصام البشير ،(بتصرف) ،وانظر أيضاً كتاب « الغلو فى الدين فى حياة المسلمين المعاصرة » رسالة ماچستير للشيخ عبد الرحمن اللويحق ، والذى كان من جملة استنتاجاته ، وبعد أن أورد جميع النصوص فى هذا الباب : أن الجماعة تطلق إطلاقين ، الأول : إطلاق الجماعة على البناء والتكوين . والثانى : إطلاق الجماعة على المنهج والطريقة .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

بما تقول جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ، ومَن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التى أمِر بلزومها .

ويُفهم من ذلك ، أنه قد يكون هناك جمع من الناس أو جماعات من الناس يجمعهم اعتقاد واحد ويعملون وفق رسالة واحدة وعلى فهم واحد وأهداف واحدة ، ولكن لا يلزم أن يكونوا مجتمعين عضوياً أو تنظيمياً .

وهذا الذى يُفهم أيضاً من تعليق النووى على مفهوم الطائفة المنصورة ، فبعد أن أورد أقوال العلماء والأئمة فى تفسيرها قال : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، فمنهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ومنهم محدِّثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونوا متفرقين فى أقطار الأرض .

أما الاختيار الثانى لمفهوم الجماعة ، فهو ما أشار به الإمام الطبرى عند قوله : إن المقصود بالجماعة هى جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير ، فقد أمر رسول الله ﷺ بلزومه .

وقد نقل الحافظ فى الفتح عن الطبرى قوله : اختُلف فى هذا الأمر وفى الجماعة فقال قوم : هو للوجوب ، والجماعة السواد الأعظم ... إلى أن قال : والصواب أن المراد من الخبر بلزوم الجماعة الذين فى طاعة من اجتمعوا على تأميره ، فمَن نكث بيعته خرج عن الجماعة (١) .

إذن فالجماعة هنا هى جماعة المسلمين العامة ، والأمير هنا أو الإمام هو إمام أهل السُنَّة جميعاً ، ولزوم الجماعة هنا هو لزوم عضوى تنظيمى ، ويكون واجباً .

أما فى حالة عدم وجود هذه الإمامة ، فالالتزام تنظيمياً بجماعة معينة تعمل على منهج أهل السُنَّة ، ولأجل استعادة جماعة المسلمين العامة وتنصيب الإمام ، فيُحمل على الندب وعلى حسب المصلحة ، ولا يُعتبر الخروج عنها أو عدم الارتباط بها خروج عن جماعة المسلمين التى ورد فيها النكير .

---

(١) انتهى الاقتباس .

إذن فنحن أمام تصورين اثنين - ومن حيث فهم السَلَف - لا واحد ، فى سبيل صياغة إيجابية جَماعية لتفعيل ساحة الدعوة الإسلامية واستيعاب جدية العمل فى كافة الظروف وتبدل الأحوال .

وإذا حاولنا الاستفادة من التجربة الإنسانية عموماً فى هذا الإطار ، فلنا أن نضيف صورة أخرى للعمل الجَماعى الفاعل وهو العمل المؤسسى ، أى القائم على العمل من خلال المؤسسات ، والتى يتم من خلالها إنشاء الوعى الجَماعى المطلوب فى أى مجتمع وتطوير مراحله .

إذن فنحن أمام عدة صور مختلفة لصياغة عمل إسلامى جَماعى فاعل ، وبإمكان المسلم المعاصر أن يعمل للإسلام ، غير محروم من بركة العمل الجَماعى إما من خلال : منهج واحد وعلى أن يكون موافقاً لمنهج أهل السُنَّة والجماعة . أو من خلال عمل تكوينى منظم واحد ، أو من خلال مؤسسة دعوية واحدة . وفى كل الأحوال عليه أن يجتهد فى اختيار الوسيلة الفاعلة الأنسب لواقعه وموقعه .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النقطة فلنا أن نطرح عدة أسئلة ، بناء على واقع مسيرة العمل الجَماعى للدعوة الإسلامية الآن والعقبات التى تعترض سبيلها :

أولاً : إلى أى مدى يمكن تقدير صوابية الدعوة لحشر الملتزمين جميعاً للعمل من خلال تصور جَماعى واحد ، فى هذا الوقت بالذات ، ومع عدم إمكانية ذلك من الناحية الفعلية ، فضلاً عن الخطورة فى محاصرة هذا العمل وإمكانية تشتيته ، وما الصورة الأنسب لتوحيد الجهود ؟

ثانياً : ما مدى صوابية تسفيه وازدراء الصور المتعددة للعمل الجَماعى أو الإسلامى عموماً ، مهما كانت ضعيفة الشأن أو هامشية الدور ، وأثر ذلك فى بروز النظرة الاستعلائية ، واحتكار الصواب ، ورفض التعدد الجائز والمفيد ، وإنزال الحرج ، ومصادرة الاجتهادات ، وانتشار فكر التكفير ؟

ثالثاً : ما مدى صوابية تنمية الولاء الخاص دون عامة المسلمين أو العاملين للإسلام أو على حسابه ، وما آثاره فى تضخيم دوائر التعصب وإنماء التشرزم ، وما ضوابط هذا العامل وما حدوده ؟

رابعاً : إلى أى مدى يمكن النظر فى مستقبل العمل التكوينى ، لتجاوز إشكالية مشروعية العمل الجهرى العام ، وما مدى الحاجة لتطوير نظريات العمل وتقبل آراء واجتهادات جديدة ؟

* * *

القضية الثانية : هل التنظيم بديل عن الأمة ؟
(الاعتماد على الأتباع)

لقد أعطت تجربة العمل الإسلامى - الجَماعى أو التكوينى على وجه الخصوص - انطباعاً يرى اعتبار التنظيم بديلاً عن الأمة فى إجراء التغيير ، وخاصة أن العمل لا يجرى من خلال الأمة ومن خلال السعى لتطوير قناعاتها ووعيها الجَمعى مع انتظار عامل الزمن ، بل على حسب القناعة - يأتى من خلال الاعتماد على الأتباع الذين تمكن التنظيم من تجميعهم وتكتيلهم . ومرد ذلك ، ربما وجد واستمر بناء على تقييم ظالم لمجموعة الأمة ، ورؤية عدم الجدوى من إحداث التغيير من خلال الأمة أو عدم جدوى العمل العام ، وربما لأبعاد استراتيجية أخرى .

ومن ثَمَّ فقد وكلت تقديرات إمكانية إحداث التغيير المطلوب على مدى تنامى القدرة الذاتية التربوية والتكوينية للحركة ، وقدرتها على مواجهة التحديات والثبات على أرضية الصراع .

ومن ثَمَّ تبقى الأمة كطرف ثالث - متغير به - تحاول قوى الصراع فقط استقطابه ، وكسب تعاطفه نحوها .

ومن تلك القوى بالطبع أوجدت القوى الإسلامية نفسها .

والمطلوب الآن التحقق من سلامة هذه القناعة وصوابيتها وآثارها المنعكسة على وضعية العمل والدفع الدعوى تجاه الأمة ، وفى هذا الإطار من الضرورى التحقق من هذه الآثار على سبيل المثال :

أولاً : فإلى أى مدى ساهم ذلك فى تعطل الوظيفة الأساسية لأى حركة دعوية بالنسبة لمجموع الأمة ، ومن كون هذه الوظيفة - بالدرجة الأولى - دعوية للمجتمع ؟ وخاصة مع تدفق كل برامج التربية فى إتجاه التنظيم لرفع كفاءة أفراده ، ومدى اتضاح ذلك - على وجه الخصوص - بعد مصادرة النشاط العام، مثل إغلاق الشُعَب والصحف ومنع الاحتفالات العامة .

ثانياً : ومدى أثر ذلك على تبدل العلاقة مع المجتمع تدريجياً ، وإلى مجرد كونها علاقة اصطفائية ، لانتخاب الأفراد الذين تنطبق عليهم مؤهلات التجميع والتكوين ، وما علاقة ذلك بتجسيد عامل الخوف والتوجس لدى أفراد المجتمع ؟

ثالثاً : إلى أى مدى تقلص العمل الدعوى العام ، إلى مجرد كونه نشاطاً دعائياً لأنشطة الحركة والتعريف بها ، أو المنافسة فى مجال الخدمات الإنسانية ، لكسب عواطف الجماهير من منطق الإحسان ، وبالتالى ضمور وظيفة الداعية الذى همه « إخراج الناس من الظلمات إلى النور » .

رابعاً : كيف عملت هذه القناعة على تنمية الولاء الخاص دون عامة المسلمين ، وليأتى عامل المحن ليزيده تعمقاً ، وخاصة وبعد الإحساس بمدى سلبية الجماهير إزاء ما تعرَّضت الحركة الإسلامية له من ضربات ورؤية نفسها وحيدة فى الميدان؟ كذلك ، ما مدى تأثير ذلك الولاء الخاص على عاملين آخرين :

(أ) من حيث المساعدة على إيجاد تلك الفجوة - المبدئية - بين الحركة والجماهير ، ومما مهد لحرب الإعلام الرسمى من أن تؤتى ثمارها ، فضلاً عن شيوع المواقف القضائية الفكرية من المجتمع والتى مارستها بعض رموز الحركة الإسلامية .

(ب) من حيث المساعدة على إثارة عامل التنازع والتعصب الحزبى بين

فصائل العمل الإسلامى نفسه ، وبعد نمو ظاهرة الجماعات وتعدد طرائقها ، ومن حيث رغبة الكل فى اكتساب أكبر قاعدة من الأتباع ، مع ادعاء احتكار الصواب والقدرة على التغيير . وهل كان بالإمكان تجاوز ذلك التناحر ، أو تخفيفه ، لو أنصب عمل الجميع فى اتجاه تغيير الأمة ، ومن ثَمَّ فالأمة بعد ذلك هى الأقدر على إقرار التغيير وبعد تصفية الأفكار والوسائل والشعارات .

خامساً : كيف عملت هذه القناعة بأن التنظيم بديل عن الأمة ، ومن ثَمَّ الاعتماد على الأتباع على احتكار الثقافة التنظيمية الخاصة [1] وغلبة اللغة الدعوية الحركية على اللغة الدعوية العامة ؟

سادساً : وإلى أى مدى ساعد ذلك - على الإطار العام - على ضمور رسالة الدعوة أو رسالة الحركة ، وانتقالها من طور الدعوة والإصلاح للأمة إلى الدعوة للانتماء للحركة ؟ ولتتحول حركة التعبئة الدعوية من الأخذ من الأمة ، لا لتعطيها ، أما حاصل ذلك فيتجه ليصب فى اتجاه السلطة على أمل أن يصب فى النهاية بالإثمار إلى الأمة وكما يظهر من خلال الشكل التالى الذى يبين من أين تبدأ مسيرة التغيير ، وهل تنوب الجماعة وحدها فى دفع التحديات ؟

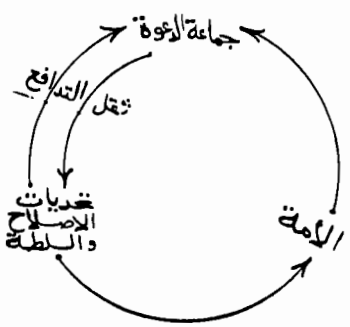

(ب) واقع التدافع الصعب .

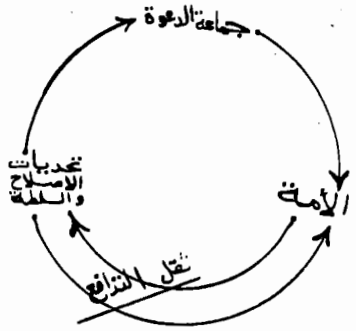

(أ) فرض التدافع الصحيح .

خط التدافع الرئيسى ، فهل تنوب الجماعة وحدها فى دفع التحديات ؟!

(١) ستظل « رسالة الأصول العشرين » للإمام البنا ، نموذجاً لهذا الاحتكام للخير ، فلم تجد من أبناء الحركة من يشرحها ويعلمها للأمة ، ولو فعلوا لكفاهم ذلك فى الإسهام فى رفع مستوى الوعى النوعى الضرورى لجماهير الأمة ، وكما قال الشافعى فى سورة العصر .

ويتبقى سؤال أخير :

هل بإمكان أى من الحركات الإسلامية المعاصرة - وبناء على التحديات التى تواجه العمل الإسلامى الآن - أن تكون بديلاً حقيقياً عن الأمة فى إحداث التغيير الذى تتبناه وبدون مشاركة من الأمة ؟

والحقيقة أن هناك تحديين يواجهان العمل الإسلامى ، تحد من داخل الصف الإسلامى نفسه ، حين يعجز عن الوصول إلى صيغة وتصور موحد لآفاق العمل والمستقبل ، وإن تعددت الجماعات ، واتفقت على التكامل لا التدابر .

والتحدى الآخر الذى يستهدف عرقلة المشروع الإسلامى ككل ، وهو المعادى أساساً لمنطلقات الدعوة الإسلامية المناقضة للمشروع الغربى العلمانى .

وهذه التحديات جميعاً تنوء بها وبمواجهتها حركة إسلامية معيَّنة سواء قبل التمكين أو بعده ؛ فقبل التمكين : تأتى التحديات التى تحول دون حرية العمل والنشاط ومصادرة كل صور الاتصال الجماهيرى ، فضلاً عن الحيلولة دون الوصول للحكم ديمقراطياً كان أو بالقوة .

أما فى حالة التمكين : فلو فرض وهيأ الله التمكين لتنظيم ما أو جماعة من الجماعات ، فالكيد لهذه الدولة الإسلامية الناشئة ، ومن ثَمَّ تأليب التآمر الدولى والعزل ، حتى يموت الشعب أو يسقط النظام ، وإشعال الفتن من الدول المجاورة ، وتأليب الطوائف الداخلية ، وإشاعة طائفية الحكم ، وعدم تمثيله لكل الشعب .... إلخ .

ويصبح المشروع الطموح فى الإصلاح والنموذج الناشئ مهدداً بالتصفية ، ما لم يتخل القائمون على الحكم عن الرداء الحزبى واعتماد صور أكثر مشاركة شعبية .

* *

والحقيقة ، أننا نعيش تجربة معاصرة فى السودان تقول ذلك وبكل قوة ، وتصرح بلسان الحال : بأنه ما لم تعمل الحركات من خلال جبهة عريضة ، أكثر تمثيلاً للأمة ، بجميع طوائفها ، ومن ثَمَّ تتجاوز بالدعوة نقاط تماس كثيرة لكى تنشر الفكرة الإسلامية وتعمل على تشييعها مع مقومات التغيير ، وبدرجة يستطيع معها الشعب بعد ذلك أن يتبنى الفكرة الإصلاحية ويحافظ عليها ويحمى مؤسساتها حين تقوم .

تقول التجربة : إنه ما لم يحدث ذلك ، فما زال الطريق طويلاً ، والبون شاسعاً إلى أن تتهيأ الأسباب ، ويكون الأمر أكثر توافقاً مع السنن .

ومن هنا يمكن القول : ما زالت إمكانية إحداث تغيير حقيقى فى المجتمعات الإسلامية وفى اتجاه إقامة مشروع الدولة الإسلامية مع الحفاظ عليها ، أكبر من إمكانيات أى تنظيم أو جماعة ، ومن ثَمَّ فقد أصبح الجهد المطلوب الآن ومن قبيل إكمال الرسالة التى قطع فى سبيلها أشواط كثيرة هو : القدرة على تشييع الفكرة الإسلامية تربوياً ، وعدم الحرص على احتكار إحداث فعل التغيير ، ومن ثَمَّ محاولة تسديد الوعى من خلال الأمة ، بالتحايل على نشر الفكرة ورعايتها على مستوى التطبيق ، وحتى يصل الوعى المرشد إلى أغلب المستوى الأفقى .

ومن ناحية أخرى .. فبقدر النجاح فى إزالة الفوارق الحزبية والطائفية بين فئات العمل الإسلامى من ناحية ، وبينهم جميعاً وبين جميع المسلمين من ناحية أخرى ، بقدر الدلالة على دنو الأمل ، وليس بالعمل على احتكار التغيير ، أو إسرار الخطط أو الانكباب على الذات ، مع الاغترار بها ، والاعتماد فقط على الأتباع .

* * *